الفصل الرابع

أمريكـــــا

الفصل الرابع

أمـريكــــــــا

في صيف عام ١٩٦٥م أنهيت دراستي في ألمانيا وحصلت على الدبلوم في طب المناطق الحـارة. عـدت إلـى المملكة ومـعي زوجـتي وطفلتي في إجازة قـصيـرة توجـهنا بعـدها إلى الولايات المتـحدة الأمـريكيـة، لمواصلة دراستي للماجستير في الصحة العامة.

علي أن أقف وقفة قصيرة عند تخصص الصحة العامة. هي فرع من فـروع الطب، يعني بالجـانبين الوقـائي والتطويري للصـحـة، بما في ذلك دراسة أسباب الأمراض، ومعدلات انتشارها، وطرق الوقاية منها، ويشمل فيما يشمل إصحاح البيئة، والتغذية، ورعـاية الطفل منذ تكوينه جنيناً في رحم أمـه. كـمـا يعنى بالوقـاية من أمـراض الـعمل والحـوادث والكوارث. وبكلمـة أخـرى تعنى الصـحـة العـامـة بوقـاية الإنسـان من المرض قـبل أن يصيبه، كما تعنى بحمايته من مضاعفات المرض إذا ما أصابه، وهي في كل هذا تسعى إلى تحقيق التوازن الدقيق بين الإنسان والبيئة. فرع من فـروع الطب يجمع بين علوم شتى. علم الأمـراض، وعلم الاجتـمـاع، وعلم البيئة، وعلم السلوك البشري، ويخـرج بدارسيه من بين جدران المستشفى إلى البيئة والمجتمع.

كان اختياري للصحة العامة مثار جدل بين أفراد عائلتي وأصدقائي، وحتى بين زملائي من الأطباء.. أطبيب دون عيادة، ومرضى، وسماعة، وشنطة سوداء؟ أطبيب دون أدوية وحقن ومشرط؟

والدتي ـ رحمها الله ـ سألت من حولها ممن تثق فيهم. فيم سيتخصص زهير؟ قيل لها: إنه سوف يمر على باعة اللحوم والخضروات في المنشية (سوق الخضار في مكة) ليراقب أعمالهم ويفحص بضاعتهم! فدعت لي بالتوفيق، وأوصتني خيراً بالناس وأن أرفق بهم لئلا يدعون علي بمكروه.

أما زوجتي فقد ظلت لسنوات وهي لا تملك أن تجيب على من يسألها عن تخصصي.!! إلى أن جاء اليوم الذي صاحبتني فيه إلى تربة البقوم لإجراء الدراسة الميدانية لأطروحة الدكتوراه. ووجدت نفسها تنتقل بين مضارب البادية في قيظ الظهيرة من شهر أغسطس تجمع المعلومات عن صحة الأطفال.. يومها فقط أدركت ماذا تعني الصحة العامة.

اخترت مسيرتي في الحياة.. ولم أندم لحظة واحدة على هذا الاختيار، فقد ملأت الصحة العامة حياتي، وأثرتها أيما إثراء.

سافرنا إلى أمريكا في خريف عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) وبصحبتي والدي رحمه الله وزوجتي وطفلتنا «سحر». كنا أقرب ما نكون إلى مجموعة صغيرة من الحجاج. فبالرغم من أني أمضيت وأسرتي سنتين في ألمانيا، إلا أن أمريكا كانت مختلفة، وبخاصة نيويورك التي حططنا فيها رحالنا. كل شيء فيها ضخم وكبير وسريع.

كان علينا أن نتلاءم سريعاً مع نبض الحياة الدافق في بلاد «العم سام». فليس هناك ثمة وقت. غادرنا نيويورك إلى مدينة بلتيمور في ولاية ماريلاند مقر دراستي لسنوات مقبلة. ولعل من حسن حظي أن قبلت للدراسة في جامعة جونز هوبكنز، فهي وجامعة هارفارد من أفضل الجامعات التي تدرس هذا الفرع من فروع الطب في أمريكا.

سألت الموظفة المختصة بتسجيل الطلاب أن تدلني على سكن لأستأجره. زودتني بخريطة للمدينة، وأشارت فيها إلى ضاحية تبعد نحو عشرة أميال عن وسط المدينة، ونصحتني أن أسكن فيها، وأن أتجنب قدر الإمكان السكن في الحي الذي يحيط بالجامعة.

ضربت بنصيحتها عرض الحائط فأنا لا أملك سيارة. ومن الأولى ـ هكذا قدرت ـ أن أسكن قرب الكلية لأوفر ثمن المواصلات، ذهبت أبحث عن سكن في الحي المحيط بالكلية. وجدت إعلاناً على أحد البيوت عن شقة معروضة للإيجار. طرقت الباب فأطلت سيدة زنجية. سألتني ماذا أريد؟!. قلت: أريد أن أستأجر سكناً. نظرت إلي في ريبة، ثم أشاحت بوجهها عني وهي تقول: ليس لدينا مكان شاغر. تكرر الأمر نفسه مع أكثر من سيدة زنجية أوصدت باب بيتها في وجهي. ذهبت إلى مقهى في الحي وأنا في حيرة من أمري. اقترب مني سمسار شقق يعرض عليَّ بضاعته. أخذني إلى أكثر من شقة فوجدتها جميعها في حالة يرثى لها. لم أصدق أن هذه هي أمريكا التي أسمع عنها وأرى صورها في الأفلام.

حملت حيرتي إلى الموظفة في الكلية، فأوضحت لي ما خفي علي من الأمر. الحي حي زنوج، والسيدات اللواتي طرقت أبوابهن حسبنني شاباً عابثاً فما عهدن غير زنجي يسكن حيهن. كان ذلك وضع الزنوج في أمريكا فيما مضى وأحسب أن الأمر قد تغير اليوم عن ذي قبل.

في خلال أيام استقر بنا المقام في شقة صغيرة في ضاحية «بارك ساید جاردن» من ضواحي بلتيمور. والدي جاء معنا في زيارة قصيرة سيعود بعدها إلى الوطن. وأنا أمامي سنة من التحديات عليَّ أن أواجهها. وزوجتي حصيلتها من اللغة الانجليزية عشر كلمات. وابنتي مازالت تتعثر في خطواتها الأولى، وتنظر إلى ما حولها بحيرة لا تقل عن حيرتنا.

شغلت منذ اليوم الأول في دراستي من الصباح حتى المساء. وإذا كانت حصيلة زوجتي من اللغة الإنجليزية ١٠ كلمات فحصيلة والدي كانت نصف هذا العدد. ومن ثم أصبحت المشكلة أمامه هي كيف يقضي وقته. أبين أربعة جدران وهو من هو في حركته وانطلاقته؟ أيخرج إلى الشارع وقد لا يستدل على طريق العودة؟ وأخيراً قرر الوالد أن يغامر، ويستطلع معالم الحياة حول البيت في حذر.

وجد بائع خضار يعرض بضاعته على عربة يد. فوقف أمامه يقرؤه السلام. رطن له الرجل بالإنجليزية فأجابه الوالد: اسمع يا أخي لا تتعب نفسك، فلن أفهمك ولن تفهمني، ولكني أريد أن أتحادث مع إنسان. ثم لا

أكتمك، أنه لن ينقضي عجبي وأنا أرى في أمريكا من يعرض بضاعته على عربة يد!!

ويرطن الرجل.. فيعود الوالد يشرح وجهة نظره في الموضوع.

ويمضي الوالد سويعة في «حوار الطرشان» مع البائع يعود بعدها إلى البيت قبل أن يفقد معالم الطريق.. وبعد أيام يدرك أن لا فائدة ترجى من البقاء في عالم لا يجد فيه من يسامره فيغادرنا عائداً إلى الوطن، ولا ينسى أن يدس في يدي ثمن سيارة صغيرة أنتقل فيها بين البيت والجامعة.

بقيت مشكلة زوجتي تنتظر حلاً، كلماتها العشر من اللغة الإنجليزية لم تتطور على مدى أسبوع، اشتكت من عارض ألم بها فأخذتها إلى المستشفى. بعد الظهر استدعاني أستاذي المشرف على دراستي. قال: اتصلوا بي في المستشفى وذكروا لي أن زوجتك تعاني من صداع مرده اكتئاب عارض، فهل هناك ما أستطيع أن أفعله من أجلك.

قلت.. هي الوحدة وعدم التواصل.

أعطاني أستاذي عنوان مؤسسة خيرية أنشأتها زوجات الأساتذة للعناية بأسر الطلاب المغتربين، جاءتنا سيدة أمريكية تدرس زوجتي مبادئ اللغة الإنجليزية، ثم انضمت إليها سيدة أخرى، ثم التقت زوجتي بجارتنا العجوز مسز هايدي فتطوعت هي الأخرى لتدريسها.. وأصبح لزوجتي ثلاث مدرسات بالمجان. وبعد أسابيع أصبحت أم البنين قادرة على التخاطب والتسوق.

لم تكن مشكلة اللغة الإنجليزية قاصرة على والدي وزوجتي. وإنما انسحبت أيضاً عليَّ أنا. لقد درست الطب في مصر باللغة الإنجليزية. وحتى أكون محدداً في حديثي دعني أقول إني درست الطب بلغة (أنجلو آراب). الكتب التي ندرسها باللغة الإنجليزية، أما المحاضرات فأكثرها يلقى بلغة مهجنة تتداخل فيها الإنجليزية بالعربية. فمثلاً يقول المحاضر «إذا عملنا INVESTIGATION (فحوصات) لمريض بالـ Hepatitis (التهاب الكبد) فسنجد الآتي».

هذه اللغة المهجنة التي كنا نسمعها من أكثر أساتذتنا، لم تكن لتسهم في تطوير لغتنا الإنجليزية. وكان طالب الطب منا ـ وما يزال ـ لا يكاد يرجع إلى قاموس اللغة الانجليزية بعد السنة الثالثة في الكلية إلا لماماً، فالتعابير الطبية تتكرر، ومحصولنا من اللغة محدود.

وجدتني في أيامي الأولى من دراستي في أمريكا أجد صعوبة في فهم بعض المحاضرات، فلغتي الإنجليزية لا تساعدني على المتابعة. أضف إلى ذلك صعوبة اللهجات التي لم أتعود سماعها. واقتضى الأمر مني جهداً مضاعفاً لكي أحسن لغتي الإنجليزية حتى أتابع المحاضرات وأشارك في النقاش. نصف وقتي أصبحت أمضيه بين القواميس، ورحت أواصل الليل بالنهار في دراستي. كانت رفاهيتي الوحيدة هي عطلة نهاية الأسبوع أمضيها مع زوجتي وطفلتي، نستجيب فيها لبعض الدعوات المتفرقة تأتينا من الزملاء والأساتذة، أو في زيارات متباعدة نقوم بها إلى واشنطن حيث نلتقي بالأصدقاء من أعضاء السفارة.

لم يكن يخفف عني عبء المعاناة.. إلا اليد الرحيمة الحانية من زوجتي.. وحبي بل عشقي للمادة التي أدرسها.. وإصراري على النجاح. وهنا يعن لي أن أذكر موقفاً لا أنساه، له بعض الدلالة. زاد وزني خلال بضعة شهور نحو عشرة كيلو جرامات. أسهم في ذلك عدم ممارستي لأي نشاط رياضي، إذ شغلت عنها بالدراسة، أضف إلى ذلك الأمسيات التي كنت أمضيها أمام التلفزيون في نهاية الأسبوع، أظل آكل وأشرب فيها وكأني أثأر من ساعات الدراسة المتواصلة أيام الأسبوع.

لم أتنبه للمشكلة إلى أن ذهب زميل لي يبحث عني ذات يوم. سأل عني حارس الكلية، فلم يتذكر اسمي ولكنه تذكر الشاب البدين ذا الملامح الشرقية. قالها زميلي وهو يضحك، ولكني لم أنم ليلتي تلك، في الصباح أستقر عزمي على أن أصوم شهرين متتاليين. وتخلصت مما تراكم على جسدي من شحوم.

الدلالة هنا هي أن حياتنا قد تنعطف يميناً أو شمالاً، إثر موقف، أو كلمة عابرة، أو إشارة. ويأتي العزم والإصرار فيحملان المرء على المركب الصعب حتى يصلا به ـ بعون من الله ـ إلى هدفه.

مضت سنتي الأولى في الجامعة مليئة بالجهد والتعب والمشقة. حافلة بالمتعة والإثارة والإحساس بالهدف الكبير الذي أسعى لتحقيقه. وبفضل من الله تكلل سعيي بالنجاح. وفي نهاية العام اجتزت امتحان الماجستير.

عزمت على أن أتقدم لامتحان قبول الدكتوراه، ولم أقرر دخوله إلا قبل موعده بثلاثة أسابيع، فقد كانت نيتي مبيتة على أن أنهي دراسة الماجستير وأعود إلى المملكة. ثم أستأنف فيما بعد دراسة الدكتوراه. لا أعدو الحق إذا قلت: إن السبب الرئيس وراء رغبتي في العودة إلى الوطن هو صعوبة الحياة المتقشفة التي كنا نعيشها، كان راتب البعثة محدوداً وأزعم أنه كان لا يزيد عن دخل الشغالة التي تعمل في البيوت. ما زلت أذكر أن غدائي في مقصف الكلية في الأيام الأخيرة من الشهر لم يكن يزيد عن طبق شوربة مع قطعة خبز.

أقول هذا وأنا أحمد الله على ما أنعم به علينا من فضل، ما كان والدي ليمنع عني المعونة المالية لو طلبتها. بيد أني كنت أفضل أن لا أطلبها معتمداً على نفسي بعد الله.

بالإضافة إلى قلة الدخل، كانت حياتنا الاجتماعية محدودة. فلم يكن في مدينة بلتيمور التي نقطنها إلا بضع أسر عربية اصطفينا منها أسرتين عراقية ومصرية، وبالرغم من أن مدينة واشنطن لم تكن تبعد عنا إلا مسيرة ساعة بالسيارة وبها جالية سعودية من العاملين في السفارة، إلا أن سفرنا إليها كان متباعداً لضيق الوقت وذات اليد معاً. بيد أن أم البنين جزاها الله خيراً وقفت أمام رغبتي في العودة بالمرصاد، أصرت على أن نبقى في أمريكا حتى أكمل الدكتوراه.

أقدمت على مرحلة الدكتوراه وسؤال يلح في خاطري، كيف تكتب رسالة الدكتوراه وكيف يتم اختيار موضوعها؟ ذهبت إلى أستاذي تيموثي بيكر أحمل إليه تساؤلاتي. فأشار علي بأن أذهب إلى المكتبة وأبحث عن رسالة دكتوراه سماها لي، طلب مني أن أدرسها لمدة أسبوع ثم أعود إليه لنقاشها. شغلت طيلة الأسبوع بالرسالة، درستها دراسة متأنية، وقيدت ملاحظاتي عليها. وعدت لأناقش أستاذي فيما قرأت.

سألني. هل قرأتها واستوعبتها؟

قلت: نعم.

قال.. إذن فاعلم أن هذا النوع من رسائل الدكتوراه لم يعد مقبولاً في الجامعة.. اكتفى أستاذي بذلك ولم يزد. وتركني أبحث عن السبب حتى عرفت أن الدراسة وصفية، والجامعة لم تعد تقبل إلا الدراسات التحليلية.

استأت بادئ ذي بدء لموقف أستاذي مني. أبعد كل هذا الجهد الذي بذلته يقول لي ببساطة: إن هذه الدراسة غير مقبولة. بيد أني عندما تأملت في الموضوع وجدت أن ما فعله أستاذي هو الصواب. لم أنسَ هذا الدرس طيلة حياتي، فقد نبهني إلى أن دور المعلم هو مساعدة طلبته على البحث عن المعرفة في مظانها ومصادرها، لا أن يلقنهم إياها.

كان اهتمامي في مرحلة الماجستير ينصب على مرض البلهارسيا، وهو امتداد طبيعي لاهتمامي بهذا المرض أثناء دراستي لطب المناطق

الحارة في ألمانيا، كما أني في الصيف الذي مضى شاركت مع اختصاصي الوبائيات في مستشفى أرامكو في بحث ميداني عن البلهارسيا في المملكة، بيد أني في مرحلة الدكتوراه تحول اهتمامي إلى الصحة الدولية، ربما بتأثير من أستاذي تيموثي بيكر.

كان أحد متطلبات الدراسة أن يجري طالب الدكتوراه بحثه الميداني في دولة نامية. واقترح علي أستاذي أن أجري بحثي الميداني في أفغانستان، أو الهند، أو بيرو، مقابل أن تقوم الجامعة بتغطية جميع التكاليف، ذلك أن الجامعة لديها مشاريع في هذه الدول، ولكني أصررت على أن أجري بحثي في المملكة. وبعد مداولات استغرقت زمناً غير يسير وافقت الجامعة على طلبي شرط أن تتحمل المملكة تكاليف البحث الميداني بما في ذلك استضافة أستاذين من الجامعة للإشراف على بحثي، أحدهما أستاذي بيكر والآخر أستاذ في علم الدراسات الإنسانية (انثروبولوجي). كما اشترطت الجامعة أن توفر لي المملكة إمكانات البحث ووسائل السفر والإقامة والمختبرات.

قدرت الجامعة المدة التي سوف يستغرقها إعداد رسالة الدكتوراه وما يتصل بها من دراسات نظرية وبحث ميداني بنحو ثلاث سنوات. أمضيت الشهور الأولى منها في اختيار موضوع البحث ومنهجيته ودراسة بعض المقررات، وانتهيت إلى ثلاثة بدائل مقترحة لموضوع البحث: دراسة مقارنة لأمراض الأطفال، أو ملامح من الطب الشعبي، أو مرض الزهري المتوطن.

في صيف عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) غادرت أمريكا إلى المملكة لأقوم بجولة استطلاعية أحدد فيها أهداف ووسائل البحث الميداني، ولأقنع المسؤولين بقبول شروط الجامعة.

لم أجد مشقة في إقناع وزير المعارف الشيخ حسن آل الشيخ تغمده الله برحمته بأن أستمر في دراستي للحصول على درجة الدكتوراه بعد أن اجتزت امتحان القبول فيها. كما لم أجد صعوبة في أخذ موافقته على تبني الوزارة لمشروع البحث الميداني، واستضافة أستاذين من الجامعة، وتوفير إمكانيات البحث. لم تكن طبيعة الشيخ حسن وخلقه الكريم وحدهما وراء موافقته، وإنما كان هناك أيضاً بعد نظره. فبحثي هو أول بحث لرسالة دكتوراه يقوم به شاب سعودي في المملكة، وربما قدر الوزير أنه سيكون بادرة لبحوث أخرى..

لا أستطيع أن أدعي أن مسؤولين آخرين في الوزارة كانوا مرحبين بالفكرة بل أن يكونوا متحمسين لها، ومن ثم راحت العقلية الإدارية التقليدية تثير عشرات الأسئلة حول الصلاحيات والارتباطات المالية وما تجيزه أو لا تجيزه النظم واللوائح. بذل عباقرة الإدارة جهداً مشكوراً لعرقلة مشروع البحث. ولكن الشيخ حسن تجاوز كل العقبات. أذن لي بالاستمرار في دراسة الدكتوراه، ووافق على أن تتبنى الوزارة مشروع البحث، وأن تتكفل بمصاريفه، ووفر لي سيارة «بوكس» لتنقلاتي وزودوني بخطابات توصية لأمراء المناطق لتسهيل جولتي في أنحاء المملكة.

أربعة شهور أمضيتها متنقلاً بالسيارة البوكس بين مدن وقرى وبوادي المملكة، زرت فيها مناطق الصمان، والخرج، ووادي فاطمة، وجبال الشفا، وقرى القطيف، وواحة الأحساء، وتربة البقوم.

استقر رأيي على موضوع البحث: دراسة مقارنة لصحة الأطفال في ثلاثة مجتمعات، القرية والهجرة[1] والبادية، لمعرفة ما إذا كانت هناك فوارق في صحة الأطفال بين هذه المجتمعات. ولتحديد المؤثرات والعوامل التي قد تؤدي إلى هذه الفوارق إن وجدت، وبقي عليَّ أن أحدد مكان البحث، منطقة تتلاقى فيها المجتمعات الثلاثة، القرية والهجرة والبادية.

من ذكرياتي التي لا تنسى أني وصلت في إحدى جولاتي إلى قرية الهياثم بالخرج، يرافقني الأستاذ عبدالله بن رداس مندوباً من وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وهو من أكثر من عرفت إلماماً بأحوال البادية وأخبار سكانها وأشعارهم وأسماء قبائلهم، كان أمير الهياثم على سفر فاستضافنا نائبه. أمضيت في الهياثم ثلاثة أيام أستطلع فيها أحوال السكان الصحية، وألم بجوانب من العادات والتقاليد وأنماط الغذاء التي تتصل بصحة الأطفال.

بعد بضعة أسابيع عدت إلى الهياثم في زيارة قصيرة لأستكمل بعض المعلومات، لقيني أميرها الشيخ خالد بن حشر، بدوي تحمل قسمات وجهه سمات الشهامة والرجولة، وعيناه توحيان بذكاء فطري.

(١) الهجرة هي منطقة يستقر بها البدوي أول ما يستقر يمارس بها شيئاً من الزراعة، ثم مع الزمن تتحول إلى قرية.

سألني الأمير بعد أن رحب بي.. ما الغرض من الزيارة.

قلت: أنا طبيب أجمع بعض المعلومات الصحية وسأكتب عنها دراسة أرجو أن تستفيد المنطقة من نتائجها. نظر إلي الرجل طويلاً. ثم قال. اسمع يا دكتور، إن كنت جئتنا لتكتب عن أحوالنا وترفع عنا تقاريرك، فنحن لا نريدك بيننا ولن نساعدك. أما إن كنت تجري دراسة تحصل بها على شهادة عليا في الطب فسوف نقدم لك كل المساعدات الممكنة.. ومرحباً بك بيننا..

هزتني مقولة الأمير البدوي من الأعماق، لا شيء في الحياة يوازي الصراحة والوضوح، وربطت بيني وبين الشيخ الأمير مودة اتصلت أسبابها بابنه حزام الذي عرفته بعد ذلك بسنوات.

انقضى شهران وأنا في تجوالي بسيارة «البوكس» في مناطق المملكة. أخذت معالم البحث تتضح. ولكن ما زال هناك سؤال قائم. أين أجري البحث؟ وفي أحد الأيام كنت أزور معالي وزير العمل والشؤون الاجتماعية الشيخ عبدالرحمن أبا الخيل لأعرض عليه مشروع البحث، وتطرق الحديث إلى سؤالي الحائر أين أجري البحث؟ فإذا به يهديني الإجابة. «لن تجد أفضل من تربة البقوم لإجراء بحثك. ففيها تلتقي القرية والهجرة والبادية، فالقرية الرئيسة تنتشر حولها بضع هجر، وفي باديتها تنزل جماعات من البدو، وفي القرية يقوم مركز التنمية الاجتماعية.

يمكنك اتخاذه مقراً لفريق العمل». وأردف يقول «وسوف نهيئ فيه سكناً لك ولأسرتك طيلة فترة البحث».

زودني الوزير بخطاب إلى مدير مركز التنمية الاجتماعية يوصيه بي خيراً، ويطلب منه أن يجعل إمكانات المركز في خدمة البحث الميداني. سافرت إلى تربة البقوم يرافقني «خوي» انتدبته معي إمارة الطائف. والخوي مرافق يدلك على الطريق، ويقدمك إلى أمراء المناطق. رجل بسيط في مظهره ومخبره، ولكنه يحمل معه هيبة الأمارة.

ها أنذا مقدم على تربة البقوم لأجري بحثاً ميدانياً.. ذهني مشحون بما تعلمت من علوم نظرية، ولكن كيف سأبدأ؟ وإلى أين سأنتهي؟

أين هي التجربة السابقة التي أستند إليها؟

كيف سيستقبلني الناس؟

أين مني أساتذتي وزملائي والبيئة الأكاديمية التي كانت تحيط بي في أمريكا؟

من أسأل إذا استعصى عليَّ أمر؟

وإلى من ألجأ إذا صادفتني مشكلة؟

أسئلة حائرة تدور في ذهني، والطريق يصعد بنا ملتوياً من وراء جبل (حضن) مستقبلين وادي تربة وقراها وهجرها. وبالرغم من ذلك ففي قلبي إيمان بأن الله سيمدني بعونه.

أمضيت في زيارتي الاستطلاعية لتربة البقوم عشرة أيام، تفقدت فيها الوضع الصحي في المنطقة، وتحريت إمكانية إجراء البحث، وجمعت معلومات أولية عن أمراض الأطفال وغذائهم والبيئة التي تحيط بهم.

أول ما بحثت عنه خريطة للمنطقة أستدل بها على مواقع القرى والهجر ومنازل البدو. ولكن من الأسف لا توجد للمنطقة خريطة.. دعوت بعض أصحاب الرأي والخبرة من أهالي تربة، وواسطة العقد بينهم يومذاك الشريف محمد بن علي رحمه الله. بسطت ورقة بيضاء أخذت أرسم على صفحتها ملامح تربة البقوم. أسأل ويتفضلون بالإجابة. هذا جبل «حضن» الحد الفاصل بين نجد والحجاز وقديماً قيل: «من رأى حضناً فقد أنجد»، وهذا وادي تربة يمتد من الجنوب إلى الشمال، وتلك هي هجرة «شعر» في أقصى الشمال من تربة، وهذه هجرة «الخيالة» في أقصى الجنوب منها، وعلى جانبي الوادي تنتشر القرى والهجر ومنازل البادية. ولا تمضي سويعة من زمن إلا وقد استوت أمامنا خريطة لتربة البقوم. أي نعم خريطة بدائية، ولكنها تفي بالغرض.

أمضيت أيامي متنقلاً بين القرى والهجر ومضارب البادية. وفي لقاءات مع شيوخ القبائل وسكانها من مزارعين وبدو رحل. صفحات مذكراتي اليومية تمتلئ بملامح الحياة في تربة، الخدمات الصحية، مصادر الغذاء، أسماء القبائل والهجر، منازل البدو، العادات والتقاليد المتصلة بالصحة، بيد أن الأمر لا يخلو من مفارقات.

في أحد الأيام ونحن في طريقنا إلى هجرة من الهجر نستطلع أوضاع أهلها الصحية، والسيارة البوكس تنهب بنا الطرق وتثير وراءها زوبعة من الغبار، استوقفنا على جانب الطريق شيخ بدوي طلب منا أن ننقله إلى مضارب عشيرته. وعندما عرف أننا زائرون للمنطقة غير مقيمين أصر على أن يضيفنا. اعتذرنا بأننا على موعد فقبل على مضض. بيد أننا وجدناه ونحن عائدون ينتظرنا على مشارف الوادي وفي يده شاة إما أن ننزل ضيوفاً عليه، فيذبح ويسلخ ويطهو، أو نأخذها معنا إلى حيث نشاء.

مساك الله بالخير يا شيخ مناحي على كرمك وأريحيتك. ويوم أن زرتني في بيتي في الرياض بعد ذلك بسنوات، لم أستطع أن أوفيك جزءاً مما أفضت به عليَّ، بما فيه من بساطة وعفوية ونبل.

انتهينا في إحدى جولاتنا إلى هجرة من الهجر نستطلع إمكانية ضمها إلى عينة البحث. وإذ كانت أولى خطوات البحث هي أن نسجل عدد الأطفال في كل بيت وأسماءهم وأعمارهم. فقد اتخذت مكاني في بيت من الشَّعر (الخيمة كما تسمى في البادية)، والتف حولي رهط من سكان الهجرة. رحت أسجل أسماء الأطفال يملونها عليَّ وأنا أكتب.. امتلأ دفتري بأسماء ٣٠ طفلاً، ثم صبت القهوة ودارت علينا أطباق التمر. أعقب ذلك فترة أخذ القوم يتسارقون النظر فيما بينهم ويتهامسون.

التفت إليَّ شيخهم يقول.. «اسمع يا زهير. يبدو عليك أنك ابن حلال. ترى إن شاء الله ما حنا مخونينك (لا نتهمك بالخيانة)، أنت إن شاء الله منا وفينا. ليس هناك ولا اسم من الأسماء اللي ذكرناها لك صحيح. وهاك الأسماء الصحيحة» وراح يمليها علي.

يتمتع البدوي بذكاء فطري، وقد علمته الصحراء الحذر، القوم لم تطمئن نفوسهم لهذا الغريب إلا بعد ساعة من زمن، وبعد أن أصبح بينهم وبينه قهوة وتمر.

أمضيت أياماً عشرة في تربة، استقر رأيي في نهايتها على أن تربة مكان صالح للبحث، ففي وسطها القرية تحيط بها الهجر ومضارب البادية. حددت أهداف البحث، وحجم العينة التي سأختارها، والإمكانات التي سأحتاج إليها، وعدد المساعدين الصحيين والباحثين.

عدت إلى الطائف لأكمل اتصالاتي بالوزارات المعنية: المعارف، والصحة، والعمل والشؤون الاجتماعية، وهناك وجدت في انتظاري رسالة من أستاذي «بيكر» يقترح علي فيها أن أمضي بضعة أسابيع في مستشفى أرامكو في الظهران لأقوم ببعض الاستعدادات المعملية للبحث.

استضافتني شركة أرامكو بتوصية من الأستاذ هشام ناظر وكيل وزارة البترول والثروة المعدنية آنذاك. كنا في شهر رمضان المبارك.. ولم يكن مبلغ الألف ريال الذي أتقاضاه شهرياً من وزارة المعارف ليسمح لي بالسفر لقضاء عيد الفطر مع أهلي في مكة، فأمضيته في الظهران.

كان عليّ أن أسجل النتائج التي حصلت عليها من زيارتي الاستطلاعية لتربة في تقرير أقدمه إلى الجامعة. وقدرت أني أحتاج إلى مكان أعتزل فيه الحياة والناس لبضعة أيام لكتابة التقرير، ولم أجد أفضل من جزيرة تاروت أتفرغ فيها للكتابة. وفي مستشفى جزيرة تاروت، أمضيت أسبوعاً ومعي آلتي الراقمة، أسجل نتائج الدراسة الاستطلاعية.

رتبت لي الجامعة أن أتوقف في الباكستان والهند وتايوان وتايلند واليابان في طريق عودتي إلى أمريكا للاطلاع على مشاريع الرعاية الصحية الريفية في هذه البلاد. استغرقت الزيارة ثلاثة أسابيع سعدنا فيها باستقبال الأصدقاء في سفارات الدول التي زرناها ورعايتهم لأسرتي أثناء تجوالي في الريف.

أوقفتني هذه الزيارة على أنماط مختلفة من الرعاية الصحية في دول أواسط وشرق آسيا. تأكد لي فيما تأكد أن العامل الأساسي المؤثر في صحة الأفراد والجماعات ليست الخدمات الصحية بقدر ما هو المستوى الاجتماعي والاقتصادي، بما في ذلك الدخل والسكن والغذاء والتعليم. تأكد لدي أن الأطباء قد يبرعون في علاج الأمراض، بيد أن تأثيرهم يظل محدوداً في الوقاية منها أو في رفع المستوى الصحي للمجتمع، إلا أن يتهيؤوا لذلك في أثناء الدراسة أو بعد التخرج، وقلَّ ما يفعلون.

ومن أسف أن الصورة التي وجدتها قبل ٣٠ سنة في رحلتي إلى الشرق ما زالت هي الصورة الغالبة حتى اليوم. فالطبيب عندما يتخرج في كلية الطب يكون مهيأً لمعالجة المريض أكثر مما هو مهيأ لوقايته من المرض، وما ينطبق على الطبيب ينطبق على غيره من العاملين الصحيين. الأمر إذن يحتاج إلى تطوير التعليم الطبي في منهجه وأسلوبه، حتى يتهيأ الطبيب وأفراد الفريق الصحي لأداء دورهم في الوقاية والتطوير والعلاج، ولإدراك العلاقة الوثيقة بين الإنسان والمؤثرات البيئية المحيطة به، ولاعتبار الإنسان كلٌ لا يتجزأ، جسده ونفسه وعقله.

أقف قليلاً عند بعض مشاهداتي في اليابان وما وقر في نفسي يومها من أن الحضارة كل لا يتجزأ. اصطحبي مرافقي الياباني إلى قرية في ضواحي مدينة طوكيو لزيارة مركز صحي، وجدتهم يتركون أحذيتهم عند مدخل المركز وينتعلون أخفافاً ينتقلون بها في داخله. تلفت حولي علِّي أجد ورقة ملقاة على الأرض، أو عقب سيجارة، أو مظهراً من مظاهر الإهمال يطمئنني على أننا «كلنا في الهم شرق» فلم أجد. كل شيء نظيف ومرتب وجميل، وثمة جوانب من المركز مزدانة بالزهور.

طلبت من مرافقي أن يأخذني إلى أحد بيوت القرية لأطلع على نظام الصرف الصحي فيه. صمت ولم يجب، مما أكد لي ما سمعته وقرأت عنه من أن البيت الياباني لا يدعى إليه الغرباء إلا في حدود. ثم فاجأني مرافقي بأن عرض علي أن أزوره في منزله. استقبلتنا سيدة البيت

وأخذتنا في جولة قصيرة في بيتها أكدت لي مرة أخرى أن الحضارة كل لا يتجزأ، البيت صغير، تحيط به حديقة منمنمة، كل ركن من أركانه يفصح عن النظافة والأناقة، والزهور في كل مكان. وإذ نحن نتناول الشاي قدم لي مضيفي ابنه.. صبي في الثانية عشرة من عمره. سألته عن هوايته فأجابني بأنها علم الفلك.. بادئ ذي بدء لم ألق بالاً للأمر. ما شأن صبي في الثانية عشرة من عمره بعلم الفلك. ولكن الاستصغار سرعان ما تحول إلى انبهار عندما أطلعني الصبي على كتبه ورسوماته وخرائطه، وأخذني إلى الحديقة ليريني التليسكوب الذي يرصد من خلاله نجوم السماء.

عدنا إلى أمريكا لأمضي في الجامعة نحو ثمانية أشهر للإعداد النهائي للبحث درست بعض المقررات، وأعددت استمارات البحث، ورتبت للفحوصات المعملية والسريرية التي سوف أجريها على الأطفال في تربه، واتفقت مع مركز الأمراض في مدينة أطلنطا على أن أرسل لهم عينات الدم للفحص السيرولوجي. ورصدت الجامعة مبلغ ٥٠,٠٠٠ دولار لشراء الأدوات والأجهزة المعملية للبحث. وكان وقتي مزدحماً بالعمل حتى أتمكن من إجراء البحث في فترة الصيف.

أستاذي كارل تيلر رئيس قسم الصحة الدولة بجامعة جونز هوبكنز لي معه قصص تروى. وله منهج في الحياة جدير بالتأمل. دعوته لزيارة المملكة في أكثر من مناسبة عندما كنت أجري بحثي للدكتوراه، وعندما

أسهمت في وضع خطة التنمية العلمية الأولى، ولقد تعلمت منه الكثير. الرجل كما خبرته عبر سنوات قمة في علمه وثقافته وتفانيه في عمله. أسهم في تخريج المئات من الأساتذة والإختصاصيين في الصحة العامة منتشرين اليوم في أقاصي الأرض وأدناها. له طريقة دأب عليها منذ سنوات، يمزج فيها العلوم النظرية بالجوانب التطبيقية. في كل بضع سنين يترك الجامعة لمدة عام يذهب فيه إلى الحقل يمارس الصحة العامة والوقاية من الأمراض على الطبيعة، ثم يعود إلى الجامعة وقد تزود بخبرات عملية جديدة يضفيها على دروسه ومحاضراته.

في إحدى هذه السنوات دعته الحكومة الهندية ليدرس سبب إحجام الأطباء عن العمل في الريف وليضع حلاً للمشكلة. حزم حقائبه هو وزوجته وأبناؤه وسافر إلى الهند ليمضي فيها عاماً لدراسة المشكلة. أصر على أن يسكن في القرية بالرغم من محاولات المسؤولين في وزارة الصحة ـ وأكثرهم تتلمذوا على يديه ـ في ثنيه عن عزمه. كانت حجته أنه مادام قد جاء ليدرس مشكلة أطباء الريف فعليه أن يسكن الريف ليعيش حياتهم ويلمس مشاكلهم ومعاناتهم عن قرب. ذهبوا إلى زوجته يستعينون بها عليه فلم تخذله. وكان له ما أراد. استأجر بيتاً متواضعاً في قرية من قرى الريف الهندي أقام فيه وأسرته. شذب فناءه وحصن منافذه من البعوض، وبنى خزاني ماء في أسفل البيت وأعلاه، صبغ البيت من الداخل والخارج، وزرع حديقته بالزهور. وفي بضع

أســـابيع وبتكاليف زهيدة جعل البيت معلماً من معالم القرية والقرى المجاورة.

كان أستاذي تيلر من أوائل الذين دعوا إلى تطبيق الرعاية الصحية الشاملة في البلدان النامية، وأسهم في وضع أسسها مع خبراء منظمة الصحة العالمية، وتتلمذ على يديه فيها مئات من المشتغلين بالصحة العامة في أمريكا وخارجها. وعندما جاء إلى الكلية عميد جديد لا يؤمن بالفكرة ويريد أن يبدلها تسامع بالنبأ طلبة كارل تيلر في أنحاء الأرض فأرسلوا رسائل احتجاج أتت من كل صوب بالمئات. واستجابت الجامعة لمطلبهم، ليظل اسم أستاذي كارل تيلر اسماً شامخاً في تاريخ الصحة العامة.

في كل مرة أذهب فيها إلى أمريكا أحرص على زيارة أستاذي تيلر. وإلى قبل عشر سنوات مضت وقد شارف السبعين، كان يقطع المسافة بين بيته في إحدى ضواحي مدينة بلتيمور إلى الكلية على دراجة. وعندما زرته قبل سنتين وقد بلغ الثمانين وجدته جالساً إلى الكمبيوتر يطبع أحد مؤلفاته.

أقبل شهر يونيو من عام ١٩٦٧م وقد اكتملت استعداداتي للبحث، وتهيأنا للسفر إلى المملكة. وإذا بالأجواء السياسية تتلبد بالغيوم، والتحركات العسكرية على أشدها في منطقة قناة السويس. اشتعلت الحرب وتناقلت وسائل الإعلام أنباء الهزيمة التي منينا بها. ووجدتنا

محاطين بعداء سافر. الكل متعاطف مع إسرائيل. هذه الدولة الصغيرة المسالمة، المنتمية حضارياً وثقافياً إلى المجتمع الغربي، ينوي العرب الأشرار إلقاءها في البحر!! وكأني بهم وقد عميت أبصارهم، وصمت آذانهم، وأغلقت قلوبهم عن رؤية الحق. نموذج حي لما تستطيع وسائل الإعلام أن تفعل بعقول الناس، ونموذج حي للقوة عندما يعلو صوتها على صوت العدل والحق.

أما نحن العرب المغتربون، فقد نكست رؤوسنا، وأدميت قلوبنا. لم يعد لي ولأسرتي بقاء في مدينة بلتيمور، قررنا أن نترك المدينة حتى تنجلي الغمة. سافرنا إلى نيويورك فوجدنا أنفسنا في معقل اليهود. يمننا نحو كندا فلاحقتنا أنباء الهزيمة والتعليقات الساخرة في كل مكان. بعد أيام عدنا إلى بلتيمور وقد هدأت الأزمة وإن لم تنجل الغمة.

قال لي أستاذي المشرف: سافر إلى المملكة. وإذا وجدت الجو مهيأ للبحث أرسل لي برقية تخبرني فيها أن «السيارة جاهزة»، وسوف آتيك لأشرف عليك. أما الأستاذ الآخر عالم الأنثربولوجيا فقد اعتذر عن السفر إلى المملكة حذراً من ردود الفعل.